



قراءة في كتاب جون هيفر :
الولايات المتحدة الأمريكية والمحيط الهادي
تاريخ مجال - محدود(1)

ذ.خليل السعداني •

صدر في خريف سنة 1995 عن دار ألبان ميشال ، وبدعم من المركز الوطني للآداب مؤلف "الولايات المتحدة الأمريكية والمحيط الهادي ، "تاريخ مجال حدود" ، وقد استغرق الأستاذ هيفر في تأليفه أزيد من ثمان سنوات اضطر خلالها إلى القيام بأسفار عدة إلى الولايات المتحدة للاطلاع على الربائد وأهم المؤلفات المرتبطة بالموضوع غير المتوفرة بفرنسا. إن هذا الكتاب الذي تطلب سنوات طويلة ليكتمل ، يعتمد في الأصل على المحاضرات التي ألقاها الأستاذ بمعهد الدراسات حول أمريكا الشمالية التابع لمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس ابتداء من سنة 1987. وهو أول كتاب بالفرنسية يخوض في هذا الموضوع ، بل إن محاولات التركيب بالإنجليزية لا ترقى إليه (2) .

إن تحديد المصطلحات والمفاهيم يساعد على فهم أفضل لفرضيات البحث واستنتاجاته. ويتوقف المؤلف بشيء من التمهل لتحديد المنهج والبعدين الزماني والمكاني. إن مصطلح الحدود كما يوظفه جون هيفر يختلف عن التعريف التقليدي وهو مجال اتصال دولتين ذات سيادتين مختلفتين ، ويتماشى والتعريف الذي استعمله فريدريك تورنر أحد كبار المؤرخين الأمريكيين(3). ليست الحدود كما يصورها تورنر خطا واضح المعالم نستطيع أن نتتبعه على سطح خريطة سياسية بل مجالا فضفاضا حيث تلتقي أنماط الحياة الحضرية الغربية والحياة الهندية المتميزة بشظفها و"همجيتها". ويرى تورنر أن أصول الديمقراطية الأمريكية

• أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ بني ملال.

ترعرعت على أرض الحدود هاته. بيد أنه يجب ألا نعتقد أن مجال الحدود ينحصر في اليابسة بل يتعداها إلى السطح المائي. وكما عمل الأمريكيون على استكشاف السطح اليابس في إطار هجراتهم نحو الغرب، خاضوا غمار الهادي، وهو مجال أكثر اتساعا ، ومن ثمة تتجلى صعوبة التحكم فيه والإحاطة به. ويشغل الهادي في تعريف تورنر كل المساحة التي يغطيها هذا المحيط والبلدان المطلة عليه والجزر الموجودة به من غرب القارة الأمريكية حتى آسيا وأستراليا، ومن مضيق برينغ شمالا حتى القطب الجنوبي. ويستثني هيفر من هذا المجال كندا والمكسيك لاتصالهما برا بالولايات المتحدة الأمريكية. سيشكل إذن هذا الإطار المكاني والذي اعتمده المؤلف كوحدة متكاملة مجال تفاعل ثقافات عدة. ولم يكن مجال الحدود يمثل إطارا ثابتا وساكنا بل كان يتحرك وباستمرار نحو الغرب. وكمثيلتها اليابسة كان مآل الحدود المائية إلى زوال. ويشير المؤرخ بوضوح إلى أنه لا يسعى إلى التركيز على تاريخ الولايات الأمريكية المطلة على الهادي لأن مركز القرار يظل واشنطن ، ولا إلى كتابة تاريخ شمولي ، بل إلى الإحاطة بالجوانب الاقتصادية ـــ وهذا هو مجال تخصصه ـــ والسياسية والثقافية.وهذه جوانب تتداخل فيما بينها دون أن يعني ذلك بالضرورة تداخلا سببيا وإلزاميا ، لأن كل جانب يمكن أن يحظى بتحليل خاص. إن اعتماد مفهوم الحدود في تطورها الزماني والارتكاز على وحدة المكان دفع بالمؤرخ إلى تفضيل التقطيع الكرونولوجي على التقطيع الموضوعاتي (thématique)، وهو منهج يحتاج إلى كثير من الذكاء والفطنة كي يتحقق النجاح في استعماله. وتنطلق الدراسة من سنة 1784 مع وصول أول سفينة أمريكية إلى الصين ، وتنتهي هذه المرحلة "مرحلة الحدود الكبرى" في العقد الذي شهد اشتعال حرب الانفصال. وتمتد المرحلة الثانية من 1868 حتى معركة بيرل هاربور. وتتميز بانحصار مجال اهتمامات الأمريكيين بالمنطقة وبانكماش الحدود. أما المرحلة الثالثة والأخيرة والتي تستمر حتى الآن فتبتدئ مع الحرب العالمية الثانية.

الباب الأول : مرحلة الحدود الكبرى :1867 – 1784 :

وتتميز المرحلة باتساع مجال الأنشطة الاقتصادية وعدم تركزها وهشاشة العلاقات السياسية وسطحية التواصلات الثقافية. ذلك أن ابتعاد الهادي عن مركز القرار السياسي واشنطن وعن أهم المراكز الحضرية المتمركزة بالشمال الشرقي حد من أهميته الاقتصادية. والأمر ذاته يفسر إهمال مجال الحدود استراتيجيا كما يفسر ندرة التلاقحات الثقافية. وقد خصص المؤلف الفصلين الأولين للبعد الاقتصادي ، يشبع في الأول القول عن المبادلات التجارية بين الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان الهادي. وكانت الصين تحتل مركز الصدارة، ذلك أنها كانت

تشكل مع نهاية القرن الثامن عشر أهم قوة اقتصادية بالمنطقة، وإن بدأت تظهر بها بعض معالم التقهقر. فالبلد كان يضم حوالي 300 مليون نسمة، وهو عدد ضخم إذا ما قورن مثلا بتعداد ساكنة الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية أي حوالي 16 – 15 مليون نسمة. وكان الميزان التجاري الأمريكي يشكو من العجز إلا أن قيمة ما كانت تمثله المبادلات مع الهادي كان ضئيلا بالنسبة لمجموع التجارة الخارجية الأمريكية. فعلى طول الفترة الممتدة من 1821 حتى 1867 لم تشكل المبادلات مع الهادي في المتوسط سوى7,8% بالنسبة للواردات و4,2% بالنسبة للصادرات. إن هذه النسبة تساير وضعية الحدود حيث تسيطر سلعة واحدة على المبادلات وهي الشاي. وكان يشكل هذا الأخير خلال نفس الفترة 66 % من قيمة الواردات من الصين و41% من قيمة الواردات من الهادي ككل. وكان الأمريكيون يستوردون إضافة إلى ذلك النسا وهو نبات يستعمل كدواء للإسهال والخزف الصيني والأقمشة الحريرية والقطنية. ولما لم يكونوا يملكون إلا نبات الجنسنغ(Ginseng) لتصديره ، كان عليهم أن يؤدوا ثمن ما يحصلون عليه نقدا. وقد لجأ الأمريكيون انطلاقا من 1828 ، وفي إطار محاولتهم تغطية العجز التجاري مع الصين إلى لعب دور الوسطاء في تجارة الأفيون بين الهند، المستعمرة البريطانية وكانتون التي أصبحت مع بداية القرن التاسع عشر مركزا هاما لترويج وتسويق هذه المادة رغم معارضة الإمبراطور. وعملوا في ذات الوقت على تصدير فرو ثعالب الماء وخشب الصندل وكان يستعمل كباخور داخل المعابد. إلا أن هذه المواد كلها مجتمعة لم تعط إلا حلا جزئيا ومؤقتا للعجز التجاري الذي استمر رغم ذلك. وينتقل بنا المؤرخ بعد ذلك إلى الحديث عن البدايات الأولى للتجارة مع بلدان الساحل الغربي كأندونيسيا والفيلبين وسومطرة وجاوة. أما المبادلات مع بلدان أمريكا اللاتينية فظلت محدودة بسبب الحمائية الجمركية التي كانت تتبعها إسبانيا في مستعمراتها. وقد ساهمت الأرباح التي تم تحقيقها في هذا الجانب في تغطية جزء من العجز التجاري مع الصين وجاوة والفيلبين.

لقد مكنت هذه المبادلات الأمريكيين وخاصة البحارة والتجار من التعرف على مناطق جديدة. واستقر القناصل بالبلدان التي توطدت العلاقات التجارية معها كالصين حيث تم إنشاء مجالس تجارية تهتم بتجهيز السفن والصرف والتأمين. ولما تراجع دور هذه المجالس تم تعويضهم بالكامبرادورات وهم تجار صينيون لعبوا دور الوسطاء بين الأجانب والسكان المحليين. كما ساهمت هذه المبادلات في تشجيع الملاحة التجارية الأمريكية التي كانت دخلت عصرها الذهبي قبل أن يتقهقر وضعها في الستينيات من القرن التاسع عشر.

ومن هنا يفضي المؤلف إلى الفصل الثاني المتعلق بسفن صيد الحوت التي كانت تميز المشهد البحري. وفي حواشي الكتاب والجداول ما يشير إلى شدة تعويله على المخطوطات الأصلية. دخلت هذه السفن الهادي سنة 1791 عقب السفن

الإنجليزية، وبلغت هذه الملاحة أوجها ما بين 1839 و1851، إذ كانت تنطلق كل سنة حوالي مائة سفينة نحو الشمال الشرقي ، وقد يصل العدد أحيانا إلى الضعف. وكانت تصطاد هذه السفن نوعين من الحيتان هما العنبر(Cachalot) والحوت الحر(Baleine franche).ويوفر الأول الزيت وسائلا يستعمل للإضاءة وتزييت الآلات، ولنفس الغرض كان يتم اصطياد الحوت الحر كما كانت تستعمل بعض أعضائه لأغراض صناعية. وقد تلا فترة الازدهار هاته تدهور كبير في صيد الحيتان نتيجة اكتشاف البترول ببنسلفانيا سنة1859 وانتشار استعمال الكيروزين.

وبعد أن يكون البحارة والتجار قد اطلعوا على خفايا مجال الحدود وعلى أهميته الاقتصادية يأتي دور الساسة وأصحاب القرار. ويجهد الفصل الثالث أن يلم بأسس السياسة الأمريكية بالمنطقة منذ أوائل القرن التاسع عشر عقب شراء لويزيانا من نابليون سنة 1803. لقد مكنت الاتفاقيات الموقعة مع انجلترا وإسبانيا سنتي 1846 و1849 من الحصول على منافذ هامة على الهادي وهي مضيق بادجت سوند(Pudget Sound) وسان فرانسيسكو وسان دييغو(San Diego). كما تم شراء ألاسكا من روسيا بمبلغ 7,2 مليون دولار ، ودخلها الأمريكيون في أكتوبر1868 . وكان من نتائج حصول عدد من البلدان بأمريكا اللاتينية على الاستقلال واعتراف واشنطن به أن تم توقيع معاهدات مع كل من كلومبيا الكبرى وأمريكا الوسطى الموحدة. وكان لهذه المعاهدات الأثر الحسن في الدفع بالمبادلات التجارية نحو أفق أوسع. في حين تم توقيع عدة معاهدات تجارية مع بلدان الشرق الأقصى، إما بالتراضي كما الحال بالنسبة لسيام (التايلاند حاليا) سنة 1833 والصين سنتي 1844و1858، أو بالقوة كما الحال بالنسبة لليابان سنتي 1854و1858.إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن تتوفر على أسطول قوي بإمكانه السهر وباستمرار على المصالح الأمريكية. وقد تم إرسال أول سفينة حربية إلى سواحل أمريكا اللاتينية سنة 1818 وارتفع العدد بعد ذلك إلى سفينتين ثم إلى ثلاث، ليصبح انطلاقا من 1840 ست سفن على الأقل . ولم يتم إنشاء الأسطول الآسيوي إلا سنة 1835. وظل عدد وحداته ضئيلا جدا. ويعد المجهود الذي تم القيام به سنة 1854 لفتح اليابان استثناء، حيث تم إرسال تسع سفن تحمل مائة مدفع ومحملة ب 1775 رجلا. وموازاة مع ذلك تم تنظيم رحلة استكشافية كبرى للمحيط ما بين 1832و1842 ، شارك فيها كثير من العلماء، وضمت ست سفن أبحر على ظهرها 350 فردا، وحققت الرحلة أغراضها رغم أنه لم تعد إلى نقطة الانطلاق إلا سفينتان.

ويكشف الفصل الموالي والمعنون"صدام الثقافات" عن صورة الشعوب القاطنة بمجال الهادي في متخيل الأمريكي ، وهي صورة متباينة وإن كانت في مجملها تضع هذه الثقافات في مرتبة دونية. إلا أن سكان أمريكا اللاتينية الكاثوليك يوجدون بمراتب أرقى من تلك حيث يوجد الوثنيون الآسيويون أو "الهمجيون" القاطنون بجزر الهادي.

إن تباين الصورة في ذهن الأمريكيين يدل على ندرة الاتصـــالات. لقــد رأى فلاسفة الأنوار في شعوب الهادي مثال البراءة والطهر والصفــاء، وتلــك صفــات كانت تعوز الحضارة الغربية، ونفس الانطباعات نستشفهــا من كتـــابات بعــض الروائيين كهرمان ميلفيل(Harman Melville) وفنيمور كوبر(Fenimore Cooper) . أما الصين فكانت تمثل في أعين الكثير من الأمريكيين الإمبراطوريــة الكاملــة. إلا أن الرؤى تختلف تماما لدى التجار وهم من احتكوا حقا بساكنة مجال الـــهادي، ورأوا كيف أن سكان الجزر كانوا ومقابل الحصول علــى بعــض المنتجــات الأمريكيــة يلجأون إلى إشباع رغبات البحارة الجنسية بالتنازل بعض الوقــت عــن أزواجــهم وبناتهم، وكيف أن بعض القبائل كانت من آكلة لحوم البشر. ونفس الانطباع القـــاتم كان يرتسم في أذهانهم عن الصينيين الذين كانوا يتحينون الفرص لنهب الأمريكيين. وكانت الصدامات الثقافية عنيفة مع أهالي الجزر، وأدت إلى زعزعة قيم المجتمـــع المحلي برمته. ذلك أن الانهيار الديمغرافي الذي تعرضت له الساكنة بفعــل انعــدام الحصانة ضد أمراض العالم الغربي أدى إلى الشك في القيم الدينية المحليـــة وأثــر سلبا على التقاليد والبنى الاجتماعية والسياسية.

وقد ساهم رجال الدين بقسط وافر في مسألة التثـــاقف ،ونجحــت محـــاولات التنصير بهاواي حيث حل رجال الدين سنة 1819. وتم تمســيح حوالــي200 ألــف شخص ما بين 1838و1840 بفضل مجهودات 65 راهبا و70راهبة. لكن لا نســـتطيع أن نربط دائما بين التنصير والإيمان ، فقد تكون دواعي تغيير العقيدة الرغبـــة فــي تقمص مبادئ العالم الغربي ليس إلا.وفي الوقت الـــذي فشــلت فيــه المحـــاولات التنصيرية بالصين ، ولم يحصل أي تثاقف بين المجموعتين ، كانت النتـــائج جيــدة بجزيرة ميكرونيزيا(Micronésie).

الباب الثاني : مرحلة النضج 1941 – 1868 :

بانتهاء حرب الانفصال الأمريكية تدخل علاقات أمريكا مع مجال الهادي مرحلــة يمكن أن ننعتها بمرحلة النضج ، وينتهي معها الاستغلال غــير المركــز للمــوارد ويتراجع صيد الحيتان. إذ لم يعد مجال الهادي بعد ذلك هامشيا بالنسبة للمركز بـــل أضحت وتيرة الاتصال منتظمة بفضل السفن البخارية والتلغراف، واحتلت اليابـــان بدلا من الصين مركز الصدارة في المبادلات التجارية. ومن رموز النضـــج تزايــد قيمة المبادلات وتركزها المجالي وتزايد الأهمية الاستراتيجية للمنطقة . وذاك أمـــر جعل أمريكا تدخل فلك القوى الإمبرياليـــة لتتصـــارع بالتـــالي مـــع بقيـــة الـــدول الاستعمارية كاليابان. وبذلك تفقد الحدود طبيعتها الفضفاضـــة مـــع بدايـــة القـــرن العشرين، لتتعدد بذلك أوجه التعاون أو المواجهة مع بلدان المنطقة. وينقسم البـــاب الثاني كسابقه إلى أربعة فصول: التجارة ،والعلاقات الثقافية والإمبرياليـــة والبـــاب المفتوح، ومشكلة الهادي.

ظل الميزان التجاري الأمريكي يشكو من العجز،ولم تكن الصادرات تغطي سوى64% من قيمة الواردات. وكانت واشنطن توجه 20% من مبيعاتها الخارجية نحو مجال الهادي وتستمد منه10% من مشترياتها. ويأتي على رأسها الحرير الذي فاق الشاي. والسلعتان معا كانتا تشكلان 70% من صادرات اليابان نحو أمريكا. أما ما كانت تصدره هذه الأخيرة فيتكون إذا ما استثنينا الحرير من مواد مصنعة أو شبه مصنعة. ودخلت الملاحة التجارية في تراجع كبير،ذلك أن الأمريكيين أخفقوا في مجاراة الثورة التقنية التي عرفتها صناعة السفن البخارية مما كان له أسوأ الأثر على نقل البضائع. وتغيرت الجغرافية البحرية للمحيط الهادي سنة 1914 بفعل عاملين : انطلاق الحرب العالمية الأولى التي أبعدت عن المجال المنافسين الرئيسيين لواشنطن ، وكذا فتح قناة باناما.وقد تطلب هذا المشروع من واشنطن غلافا ماليا مقداره 352 مليون دولارا. ورغم كل المحاولات لم تتمكن أمريكا من استرجاع مكانتها فيما يتعلق بالملاحة البحرية في فترة ما بين الحربين ، في حين حققت بريطانيا واليابان سبقا كبيرا ، وأصبحت هذه الأخيرة تحتل المرتبة الثالثة عالميا. وقد أفاد انتشار استعمال التلغراف مع نهاية القرن التاسع عشر في تسهيل الاتصال وانتقال الأخبار. إلا أن أمريكا ظلت تعتمد على شركتين أجنبيتين من إنجلترا والدانمارك كانتا تستحوذان على الخطوط الرابطة بين الشرق الأقصى وأوربا وأمريكا. وإن تم سنة 1903 إنشاء خط للربط بين كاليفورنيا ومانيلا فإن الشركة الأمريكية التي كانت تمتلكه كانت تتألف من 75% من رساميل أوربية. كما اعترضت إقامة خطوط جوية عبر المحيط بعض العراقيل وخاصة الصراع الإنجليزي الأمريكي للسيطرة على بعض الجزر التي يمكن أن تشكل محطات للتوقف والتموين ، لكن خف هذا الصراع بعد 1945، إذ أصبح قطع هذه المسافات لا يحتاج إلى مثل هذه المحطات. وقد اعترض مسألة تطوير الاستثمارات الأمريكية بمنطقة الهادي أن الميزان التجاري الأمريكي ظل يشكو من العجز حتى نهاية القرن التاسع عشر. وتغير الوضع ما بين 1897و1905 بعد أن حققت واشنطن بعض الفائض. وكان يجب انتظار الحرب الكونية الأولى لتتحول أمريكا من دولة مدينة إلى دولة دائنة، وتتمكن من الاستثمار بالخارج. هكذا وجهت الاستثمارات لاستخراج المعادن في الشيلي والبترول في الهند والذهب والكاواتشو بسومطرة وماليزيا. في حين قامت بعض الشركات الأمريكية بإنشاء مراكز كهربائية وشركات تركيب السيارات باليابان واستراليا وشركات صناعة السجائر بالصين.

وإجمالا نرى أن مجال الحدود فقد خلال هذه الفترة الكثير من مميزاته فالمسافة المقاسة بالزمن لن تعد عاملا معيقا خصوصا بعد فتح قناة بناما. ولم يؤثر التراجع النسبي للأسطول الأمريكي في ازدهار العلاقات التجارية وتزايد الاستثمارات الأمريكية بالهادي. إلا أن المواد المتبادلة ظلت توضح عدم التكافؤ بين المركز الذي أصبح يمثل منذ 1880 أول قوة اقتصادية عالمية والهامش حيث تمثل

اليابان البلد الوحيد الذي بإمكانه منافسة أمريكا. وقد أدى تزايد الاتصالات بين الضفتين مع مرور الوقت إلى تلاشي الحدود الثقافية. وازداد التعرف بالغير وتزايد التخوف منه. وذلك هو مضمون الفصل الثاني.لقد أصبح الأمريكي يرى في نفسه مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين رسول التحديث الذي من واجبه المساهمة في عصرنة الشعوب المتأخرة لامتلاكه التقنيات والعلم والقدرة. وبفضل الجامعات والمؤسسات الأمريكية وفي مقدمتها روكفلير ساهمت أمريكا في تكوين نخبة محلية اضطلعت بدور رائد في بعض البلدان كاليابان والفيلبين والصين. في حين كانت مساهمة الخبراء الأمريكيين أكبر وبشكل مباشر ببلدان أمريكا اللاتينية. ولم تكن كل فئات هاته المجتمعات لتقبل بكل مظاهر التثاقف، بل حاربت ثلة منها كل معالم العصرنة كما الحال بالمزارع ومناطق استخراج المعادن بجنوب أمريكا حيث كانت تتعايش ثقافات متباينة دون أن تخلق عقدا للتقارب. وكانت الفيلبين البلد الذي احتله الأمريكيون سنة 1898 وانسحبوا منه سنة 1941، قد تأثرت كثيرا بأمريكا. ورغم أنها أصبحت دولة حديثة ومتطورة وديمقراطية ، إلا أن مظاهر العصرنة ظلت غير مكتملة.

ويستلزم الحديث عن التلاقحات الثقافية التذكير بدور رجال الدين بالصين عقب 1860 واليابان بعد1872 . وما تم تحقيقه بالصين كان أفضل لأن الصينيين ربطوا التمسيح بالعصرنة وتقمص قيم الغرب(Occidentalisation) التي توصل إلى المجد والقوة. إلا أن النتائج لم تكن مرضية عبر كل العقود لاشتعال النعرات القومية بالصين مثلا خلال 1927-1926 أو بفعل أزمة1929 ، هذا رغم أن المؤسسات المسيحية بلغ عددها بالصين 51 مؤسسة سنة 1938 وباليابان 36، في حين وصل أعداد رجال الدين 2500 بالصين و700 باليابان.

لكن كيف كانت نظرة مجمل الأمريكيين خلال هذه الفترة إلى منطقة الهادي ؟ لقد كان لانتشار فكرة الحتمية البيولوجية في بداية القرن العشرين الأثر السلبي في تحريك النعرات العرقية. وهبت المدرسة الانتشارية التي كان يتزعمها فرانز بواز Franz Boas متسلحة بمفهوم الحتمية الثقافية للوقوف في وجه هذا التيار. وساهم في ذلك نجاح كتاب مارغريت ميدMargaret Mead تلميذة بواز ، وعنوانه المراهقة في ساموا(Samoa) . على هذا كان للأنتربلوجية الثقافية دور فعال في الوقوف في وجه إحدى الآفات التي نخرت المجتمع الأمريكي أي العنصرية، ذلك أن هذا الداء العضال غذى حقد الأمريكيين على المهاجرين الآسيويين. وأسباب هذا العداء ضد الصينيين الذين مثلوا % 60 من المهاجرين واليابانيين الذين مثلوا الثلث تبدو واهية لأن هؤلاء جميعا لم يشكلوا سوى2% من مجموع المهاجرين الذين دخلوا أمريكا ما بين 1853 و1914. إن هذا التخوف من الشرق هو الذي يفسر صدور مرسوم 1924 الذي حدد عدد المهاجرين الآسيويين في مائة شخص عن كل بلد. إن علاقات من هذا النوع لابد وأن تفتح الأبواب للصراع.

ويوضح الفصل الثالث المعنون "بالإمبريالية والباب المفتوح" كيف أن انتظام وتيرة التبادل التجاري وتزايد الاحتكاك الثقافي ما بين 1870 و1910 دفع بأصحاب القرار بواشنطن إلى إعادة النظر في طبيعة العلاقة مع بلدان الهادي. إذ لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية لتظل مكتوفة الأيدي في وقت بسطت فيه بلدان أوربية سيطرتها على كثير من بلدان المنطقة.وإن كانت الأسباب النفسية تمنع أمريكا من دخول دائرة الدول الاستعمارية، فإنه سرعان ما تم تجاوز هذا العائق. ولم يكد القرن التاسع عشر ينتهي حتى أصبحت واشنطن تضم مستعمرات هاواي وساموا والفيلبين وجزرا أخرى، مما يدل على نجاح التيار الإمبريالي داخل أمريكا. أما سياسة الباب المفتوح فقد شكلت، إذا اعتمدنا أقوال مدرسة فيسكونسين Wisconsin الركيزة الثانية للدبلوماسية الأمريكية، وهي سياسة تعارض الاستعمار التقليدي لصالح فكرة إقامة إمبراطورية استعمارية تديرها واشنطن اعتمادا على قوتها الاقتصادية دون ما حاجة للقوات العسكرية. وقد كان مآل هذه السياسة الفشل ووقوع الاصطدام بين واشنطن وطوكيو.

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الفصل الرابع ومشكلة المحيط الهادي ، ليرى أن مسألة السلم والحرب ظلت رهينة خلال العقود الأربعة الأولى للقرن العشرين بطبيعة العلاقات بين أمريكا واليابان. ظلت تلك العلاقات طيبة إلى حدود 1905 وهي السنة التي حققت فيها اليابان النصر على الصين. وقد أثار هذا الانتصار مخاوف واشنطن، خاصة وأن الساكنة اليابانية أصبحت مدعوة أمام ضيق المساحة إلى التحرك نحو بعض البلدان المجاورة ككوريا ومنشوريا، وفي حاجة إلى موارد طبيعية غير متوفرة محليا. وساهمت الحرب الأولى في تأزيم الوضع بين البلدين عقب استحواذ اليابان على المستعمرات الألمانية بالصين وميكرونيزيا(Micronésie). ورغم ظهور بعض بوادر الانفراج خلال العشرينيات عقب وصول الجمهوريين إلى الحكم بأمريكا وتفوق التيار الليبرالي على حساب منافسه الإمبريالي باليابان، فإن الأوضاع عادت إلى التوتر إثر أزمة 1929، وقوت عضد الجناح العسكري باليابان. إن الاستعداد الذي كانت تقوم به واشنطن وطوكيو لتعزيز قوتهما البحرية يوضح أن المسار نحو الحرب أصبح لا مفر منه. ولم تدخل واشنطن في مواجهة مباشرة مع طوكيو مع انطلاق الحرب الكونية الثانية لكنها بدأت تستعمل سلاحها الاقتصادي ورفضت تزويد اليابان ببعض المواد الضرورية في صناعتها انطلاقا من سنة1940.

الباب الثالث : البحيرة الأمريكية 1994 – 1941 :

تكون الحدود قد تلاشت مع انطلاق المرحلة الثالثة وأصبح الهادي بحيرة أمريكية غداة تحقيق النصر على اليابان، وازدادت أهميته للوقوف في وجه المد الشيوعي وكان من نتائج السبق الاقتصادي الذي حققته بلدان شرق آسيا أن غدا

الهادي منافسا حقيقيا للأطلسي وتزايدت التواصلات الثقافيـــة، فبعــد أن لــم تكــن الولايات المتحدة الأمريكية المطلة على الهادي تضم سوى10 ملايين نســمة أي5% من مجموع الساكنة، ارتفع العدد سنة1990 إلى 40 مليون أي 16% مــــن مجمـــوع السكان. وأصبحت كاليفورنيا منذ 1963 الولاية الأكثر من حيث عدد الساكنة.

ويتميز كتاب مؤلفنا بإحكام في بنائه، إذ ينقسم البــــاب كســابقيه مـــن أربعـــة فصوليبدأ الأستاذ هيفر حديثه بدخول اليابان غمار الحرب على حين غرة. ورغـــم تحقيق طوكيو لبعض الانتصارات في البداية إلا أن ميزان القوى ما لبــث أن مــال لصالح واشنطن التي أنهت الحرب بإلقاء قنبلتين ذريتين على كل مـــن هيروشــيما وناكازاكي صيف 1945. هل كانت واشنطن في حاجة إلى استعمال هذا النوع مـــن السلاح لتحقيق النصر؟ يفتح التساؤل البعد الثقافي للحرب ويفضي بنا إلـــى تســاؤل آخر. لو كان الأمريكيون في مواجهة النازيين البيض هل كانوا لجئــوا إلـــى نفـــس الوسائل؟ ليست الحرب إذن اقتصادية وسياسية بل إيديولوجيـــة كذلــك ومرتبطـــة بمفهوم الجنس.

لم تكد سنة 1945 تنقضي حتى كانت أمريكا قد حققت السيطرة علــــى الـــهادي بفضل أسطولها وتحركت بالتالي نحو السواحل الآسيوية، إلا أن استمرار الســيطرة الأمريكية ظل مشوبا بمخاطر كثيرة. وتمحور الفصل الثاني حول هـــذه المســألة. وحتى لا تحدث مفاجأة ويتكرر ما حصل في حرب بيرل هاربور تم الـــتراجع بعــد ذلك نحو الغرب لوضع أول خط دفاعي بالاستقرار فوق بعض الجزر حيث أقيمــت محطات بحرية وجوية. ولم تتحسن العلاقات مع اليابان إلا عقــب توقيــع معــاهدة تعاون في يناير1960، مكنت طوكيو من تطوير اقتصادها دون أن تعبأ بمسألة أمنــها لأن واشنطن كانت تتولى ذلك، ولم تكتف هذه الأخيرة بذلك بل أنشـــأت محطــات عسكرية بتايوان والفيلبين وميكرونيزيا وأستراليا ونيوزيلاندة. ورغـــم أن أمريكـــا كانت ترغب في أن تحقق دول آسيا استقلالها عن الاستعمار الإنجليزي والفرنســـي والهولندي، إلا أنها ظلت متحفظة بهذا الشأن، لأنها كانت في حاجة إلى دعم البلــدان الأوربية لمواجهة الخطر الشيوعي خصوصا بعد توقيع معاهدة الصداقـــة الصينيـــة السوفياتية في فبراير1950.

غدا إذن الهادي مرتعا للحرب الباردة، وتزايد الخطر الصينــــي، وبــدا ذلــك واضحا إبان الحرب بين كوريا والهند الصينية، وأعقب ذلك تراجع لدور واشـــنطن في السياسة الدولية خلال السبعينيات بفعل حرب الفيتنام ومنافسة موسكو التي قــوت أسطولها المتمركز في الهادي وأصبحت تمتلك القنبلة الذرية، غير أن الوضع تحسن لصالح أمريكا بفضل سياسة ريغان انطلاقا من 1987. ورغم ظهور بوادر الانفـــراج مع الصين على عهد نيكسون والتي أدت لاحقا إلى إعادة ربط العلاقات الدبلوماســية وتبادل السفراء، إلا أن الوضع لم يؤد إلـــى تحـــالف لاختـــلاف طبيعـــة النظـــام الاقتصادي والسياسي بين البلدين، علما بأن واشنطن لم تكن لتنظر بعيـــن الرضـــى

إلى أحداث ربيع بيكين في يونيو1989. انتهت الحرب الباردة على حين غرة، بعد أن أعلن غورباتشوف في 1989 عن قراره بالتراجع عن أية مواجهة مع الغرب، وانهار الاتحاد السوفياتي بعد سنتين من ذلك. إلا أن واشنطن لازالت تحذر ما يمكن أن يأتي من جهة كوريا الشمالية والصين. بيد أن العلاقات مع هانوي تعرف تحسنا مستمرا وهذا مايفسر أن كلينتون وضع حدا للحظر الذي كان مفروضا على الفيتنام سنة 1994. ونعلم أنه تم مؤخرا تبادل السفراء بين البلدين.

ويوضح الفصل الثالث أن المشاكل المرتبطة بالهادي لم تعد ذات طبيعة عسكرية بل ذات صبغة اقتصادية. فبعد أن ظل مجال الهادي ولفترة طويلة هامشيا أصبح خلال الستينيات ذا حجم اقتصادي كبير عقب دخول اليابان في مصاف الدول الصناعية الكبرى، وعلى خطاها سارت كل من كوريا الجنوبية والتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ، وحديثا الصين. إن دخول الهادي في المجال الاقتصادي العالمي على قدم المساواة مع الأطلسي يؤرخ لنهاية فترة الحدود. وقد ارتفع حجم المبادلات مع أمريكا منذ الحرب الكونية الثانية من مليار ونصف إلى 200 مليار بالنسبة للواردات ومن 2,3 مليار إلى 130 مليار بالنسبة للصادرات ، فبعد أن كانت قيمة المبادلات الخارجية مع مجال الهادي تمثل خلال 1949 – 1947 18% للصادرات و30% للواردات، ارتفعت خلال 1991 – 1989 بالنسبة للأولى فبلغت 30% والثانية 40%. وإذا كان الميزان التجاري الأمريكي لا يشكو من عجز فلأن أمريكا أصبحت تبيع للهادي أكثر مما تشتري منه في الفترة الممتدة من الحرب الثانية حتى 1967. لكن سيعود العجز وبشكل أكبر انطلاقا من 1968، ووازى ذلك تغيير في الجغرافية الاقتصادية، إذ تضاءل دور أمريكا اللاتينية وتزايد دور اليابان وكوريا الجنوبية والتايوان وهونغ كونغ وسنغفورة. وبعد أن كانت الثنائية تحكم العلاقات الاقتصادية بين بلدان المنطقة أصبحت تنتظم جهويا أو في إطار تعددي، وترعاها مؤسسات دولية تسهر على تنظيم سوق تتميز بانخفاض نسبة الفوائد الجمركية. وكان ذلك هو النظام الأمثل عقب الحرب الكونية الثانيةوفي إطاره تم إدماج اليابان في اقتصاديات بلدان جنوب شرق آسيا. إلا أن هذه العلاقات بدأ يعتريها بعض التوتر مع تزايد عجز ميزان الأداءات الأمريكي ليس مع اليابان فحسب، بل مع الصين، والأمر من الأهمية بمكان، فمجال الهادي أصبح منذ 1994 أهم منطقة للتبادل التجاري بين الولايات المتحدة الأمريكية وبقية العالم.

ويخلص المؤلف في الفصل الأخير إلى الحديث عن آفاق التعايش الثقافي، إذ سهل تحويل مجال الهادي إلى بحيرة أمريكية نشر الثقافة والتقاليد والأذواق الأمريكية. واستعملت واشنطن كل الوسائل الممكنة متمثلة في رجالاتها (رجال الدين والمدرسون والتقنيون) وإعلامها (الإشهار والأفلام والأغاني واللغة) وكل

رموزها الحضارية (كوكاكولا...) وفي ذات الوقت تأثر مجال الهادي ببعض القيم الغربية كالمبادرة الحرة. إلا أن ذلك كله لم يمنع من ظهور بعض أشكال المقاومة باسم الحفاظ على العادات والتقاليد (الكونفوشسية). على أن أمريكا تشربت بعض مظاهر ثقافة الهادي إثر فتح باب الهجرة من جديد أمام المهاجرين الآسيويين منذ 1965. وبدا ذلك جليا في السكن والحركات الصوفية كالبوذية وفنون الحرب.

يوضح إذن هذا الكتاب القيم والممتع كيف اختفت الحدود اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بين أمريكا وبقية بلدان الهادي عبر فترة امتدت 210 سنة، ليصبح الهادي مجالا يقف على قدم المساواة مع الأطلسي. ويتساءل المؤرخ في النهاية عن مآل الأوضاع خلال القرن 21، هل سيكون بداية لعهد الهادي ونهاية لعهد الأطلسي الذي انطلق مع الاكتشافات الجغرافية ؟ يظل مؤرخنا حذرا إذ أن انهيار الاتحاد السوفياتي والركود الاقتصادي الذي تعرفه اليابان أمور لا تدعو إلى الاطمئنان.

لا تنحصر قيمة الكتاب في الموضوع ولكن تتعداها إلى طريقة المعالجة. فجون هيفر من المؤرخين الفرنسيين الذين يتقنون استعمال النظريات والنماذج الرياضية ، والتقنيات الحسابية، والمناهج الإحصائية الافتراضية الاستنباطية، وهي إحدى دعائم التاريخ الاقتصادي الجديد. وقد منحت منظمة المؤرخين الأمريكيين Organization of American Historians خلال مؤتمرها في فرانسيسكو في أبريل 1997 هذا المؤلف جائزة أفضل كتاب باللغة الأجنبية حول تاريخ أمريكا.

الهوامش :

1) – Jean Heffer, les Etats-Unis et le Pacifique, Histoire d'une frontière,Paris, Editions Albin Michel, 1995 , 505p.

2) – Arthur P.Dudden, The American Pacific, From The early China trade to the present, New York .Oxford University Press, 1992, 352p

– Frank Gibney, The Pacific Century. American and Asia in Changing World, New York, Scribner's-Macmillan, 1992, 596p.

– Walter McDougal, Let the Sea make a Noise. A history of The North Pacific from Magellan to Mac Arthur, New York, Basic Books, 1993, 793p.

3) – F.J. Turner, La frontière dans l'histoire des Etats - Unis, Impremerie des presses Universitaires de France-Vendome, 1963, 329p.